الفصل الثاني

حياة الصلاح الصفدي وآثاره

صلاح الدين الصفدي

هو خليل ابن الأمير عز الدين أيبك ابن عبد الله الألبكي الصفدي ، صلاح الدين أبو الصفاء[1] . كان والده من أمراء المماليك ، وولد له خليل في صفد سنة ٦٩٦ هـ ، ونشأ نشأة عربية خالصة ، نظير غيره من أبناء المماليك ، وتمتع برغد العيش في ظل أبيه ، فوجدت مواهبه مجالها الفسيح لتتفتح وتعبر عن ذاتها ، فبدا ميله الى بعض الفنون « وتعاني صناعة الرسم فمهر فيها ، ثم حبب إليه الأدب فولع بـه ، وكتب الخط الجيد ، وشارك في الفنون[2] » .

« وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى عشرين سنة ، فطلب بنفسه ، وقال الشعر الحسن ، ثم أكثر جداً من النظم والنثر والترسل والتواقيع[3] » .

فقد هيأه ولوعه بالرسم وتعلقه به ، لأن يكون خطاطاً بارعاً ، كما أطلق هذا

---

(١) النجوم الزاهرة ١١ / ١٩ .
(٢) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧
(٣) المصدر السابق . والبدر الطالع ١ / ٢٤٣

الولوع خياله وأغناه ليجيد التعبير بالتصوير في الشعر والنثر ، وهـــو في الشعر وسيلته الأصيلة .

وهكذا بدت طريق صلاح الدين واضحة متميزة ، مما سيظهر أثره كذلك واضحاً متميزاً ؛ في تحصيله واهتمامه وتآليفه .

لم يجد الصفدي في علماء بلده ما يرضي مواهبه ويشبع نهمه « وكانت له همة عالية في التحصيل [1] » فرحل إلى دمشق يقرأ على علمائها ، وكانوا من أجلّ الرجال .

فأخذ الأدب عن شهاب الدين محمود [2] ولازمه ، وعن ابن نباتة الشاعر [3] ، كما لازم فتح الدين بن سيد الناس [4] ، وأخذ عنه المغازي والسير ، وأخذ النحو عن أبي حيان النحوي [5] ، وأما عن القاضي بدر الدين ابن جماعة [6] ؛ فقد أخذ الفقه على المذهب الشافعي ، وأخذ عن الحافظ المزي [7] وقرأ على الشيخ تقي الدين السبكي [8] ، كما أخذ التاريخ عن أبي عبد الله الذهبي [9] ، حتى برع في الأدب نظماً ونثراً وكتابة وجمعاً . وقد أثمر اهتمامه البالغ بالأدب وتحصيله وما يتصل به بسبب ؛ على تحصيله لبقية العلوم ، والتي لم تجد كذلك هوى من نفسه ، فكأنما

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٦ / ٩٤

(٢) شهاب الدين محمود ابن سليمان. متوفى بدمشق سنة ٧٢٥ هـ : انظر الدرر الكامنة ٤/٣٢٤

(٣) ابن نباتة الشاعر محمد ابن محمد. متوفى بمصر سنة ٧٦٨ هـ المصدر السابق ٤/٣٣٩

(٤) فتح الدين ابن سيد الناس اليعمري محمد ابن محمد. متوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤ هـ . انظـــر الوافي بالوفيات ١ / ٢٨٩

(٥) أبو حيان النحوي محمد ابن يوسف الأندلسي أثير الدين. متوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ . شذرات الذهب ٦ / ١٤٥

(٦) بدر الدين ابن جماعة محمد ابن إبراهيم. متوفى بمصر سنة ٧٣٣ هـ . البداية والنهاية ١٤/١٦٣

(٧) الحافظ المزي يوسف ابن عبد الرحمن . متوفى بدمشق سنة ٧٤٢هـ . مفتاح السعادة ٢/٢٢٤

(٨) تقي الدين السبكي علي ابن عبد الكافي. توفي بالقاهرة سنة ٧٥٦ هـ . طبقات الشافعية ٦/١٤٦

(٩) أبو عبد الله شمس الدين الذهبي محمد ابن أحمد. توفي بدمشق سنة ٧٤٨هـ . المصدر السابق ٥/٢١٦

أدرك سوء تأثيرها في خيال الأديب ، وفي تعبيره الشعري ، فقرأ يسيراً من الفقه والأصلين [1] ، وكذلك ، قرأ بنفسه شيئاً من الحديث [2] ، حتى قال فيه صديقه تاج الدين السبكي ، ما صنف كتاباً إلا سألني فيه عما يحتاج إليه ، من فقه وحديث وأصول ونحو [3] ، بينما يقول تاج الدين نفسه في مكان آخر ، وربما وقع لي شعر ركيك من نظم الصبيان فكتبه هو عني إذ ذاك ، وبه رغبت في الأدب [4] » . وقد أجمع شيوخه على تقديره والإعجاب به ، حتى إن بعضهم سمع منه ؛ أمثال « الذهبي وابن كثير والحسيني وغيرهم [5] » .

وقد ذكره شيخه الذهبي في « المعجم المختص » فقال فيه : « الإمام العالم الأديب البليغ الأكمل ، شارك في الفضائل ، وساد في علم الرسائل ، وجمع وصنف ، سمع مني وسمعت منه وله تآليف .. والله يمده بتوفيقه [6] » .

كما اعترفوا بموهبته في الأدب والنقد ، منذ أن كان يقرأ عليهم . يقول الصفدي في معرض حديثه عن شيخه ابن سيد الناس ، وكتبت له استدعاءَ إجازته لي ، بما صورته بعد الحمدلة والصلاة ... (فكان مما أجابه به الشيخ) : وأذنت لك في إصلاح ما تعثر عليه من الزلل والوهم ، والخلل الصادر عن غفلة اعترت النقل أو وهلة اعترضت الفهم ، فيما صدر عن قريحتي القريحة من النثر والنظم ، وفيما تراه

---

(١) مفتاح السعادة ١ / ٢١٠
(٢) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧
(٣) طبقات الشافعية ٦ / ٩٤
(٤) المصدر السابق
(٥) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧
(٦) شذرات الذهب ٦ / ٢٠١

من استبدال لفظ بغيره ، مما لعله أنجى من المرهوب ، أو أنجع في نيل المطلوب ، أو أجرى في سنن الفصاحة على الأسلوب[1] » .

وقد شعر الصفـــدي في أخريات عمره ؛ بوجوب إتقان الجانب العلمي من ثقافته ، وقد كانت هذه العلوم أساساً لا يكون المتعلم من دونها « فسمع بالأخرة من جماعة ، وقرأ على الشيخ الإمام جميع (شفاء السقام في زيارة خير الأنام) . . ولما أخرجت مختصري في الأصلين المسمى « جمع الجوامع » كتبه بخطه ، وصار يحضر الحلقة ، وهو يقرأ عليّ ، ويلذ له التقرير ، وسمعه كله عليّ ، وربما شارك في فهم بعض منه . رحمه الله تعالى[2] » .

نشاطه الأدبي :

وقد كان من أنشط أدباء عصره ، كتب الكثير في التاريخ واللغة والأدب « وله الأشعار الفائقة والفنون المتنوعة[3] » ومن قـــوله : « وكتبت أزيد من ستمئة مجلد تصنيفاً[4] » « ولعل الذي كتبته في الإنشاء ضعفا ذلك[5] » . كما أنه كثير الشعر غزيره ، وهو مبثوث في أثناء كتبـــه ، « وقد أودع منه في شرح لامية العجم وغيرها ما يعرف به مقداره[6] » « وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين[7] » .

---

(١) الوافي بالوفيات ١ / ٢٨٩
(٢) طبقات الشافعية ٦ / ٩٤
(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٣٠٣
(٤) مفتاح السعادة ١ / ٢١٠
(٥) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧
(٦) البدر الطالع ١ / ٢٤٣
(٧) النجوم الزاهرة ١١ / ١٩

مؤلفاته :

وتبعاً لما عرف به الصفدي من نشاط علمي ، وغزارة في الشعر ؛ فقد كثرت نتيجة لذلك كتبه ، فعُد « في باب التأليف من المكثرين المجودين [1] » حتى قال ابن كثير بأنه « كتب ما يقارب مئتين من المجلدات [2] » أما الزركلي فقد ذكر بأنه « كثير التصانيف الممتعة له زهاء مئتي مصنف [3] » . ويتقدم ابن العماد الحنبلي ليقول : « وقفت على ترجمة كتبها الصفدي لنفسه نحو كراسين ، ذكر فيها أحواله ومشايخه وأسماء مصنفاته ، وهي نحو الخمسين مصنفاً ، منها ما أكمله ومنها ما لم يكمله [4] » ، هذا ما قيل ، أما ماوصل الينا فلم يزد على خمسة وأربعين ، اعتمدت في معرفتها على كتاب بروكلمان في « تاريخ الأدب العربي » مضيفاً الى قائمته ما لم يصل إليه خبره ، مما ورد عند غيره . وهاك ثبتاً أبجدياً بكتبه هذه :

١) - **أعيان العصر وأعوان النصر** : جعله لتراجم مشاهير القرن الثامن الهجري الى أيامه ، من الرجال والنساء ، في ستة مجلدات . وقد أشار غالبُ من ترجم للصفدي ، الى أنه أفرد هذا الكتاب من كتابه « الوافي بالوفيات [5] » ولا يزال الكتاب مخطوطاً ، وقد ورد في كلٍ من : طبقات الشافعية ٩٦/٦ والدرر الكامنة ٨٧/٢ باسم « أعوان النصر في أعيان العصر » والنجوم الزاهرة ١٩/١١ والأعلام ٣٦٤/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وعند بروكلمان GAL II 32 و SII 28 برلين ٩٨٦٤ / ٩٨٦٥ - القاهرة (ثاني) ٣٥/٥ وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة تاريخ ١٠٩١ - ١٠٩٤ .

---

(١) كنوز الأجداد ٣٨٠
(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٣٠٣
(٣) الأعلام ٢ / ٣٦٤
(٤) شذرات الذهب ٦ / ٢٠١
(٥) انظر البدر الطالع ١/ ٢٤٣ والدرر الكامنة ٢ / ٨٧

٢) - **اختراع الخراع** : وهو شرح مفصل لأشعار مع تعليقات في علوم اللغة والعروض ، ولم يرد إلا عند بروكلمان S II 29 و GAL II 33 ليدن ٣٢١ .

٣) - **الأرب من غيث الأدب** : ولم يرد إلا في فهرس الخزانة التيمورية ١٧٧/٣ دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٨ وقد عثرت على نسخة مطبوعة ، في مكتبة معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة (ب ١ - ١٩٦) بالمطبعة العثمانية سنة ١٨٩٧ ، ويغلب على الظن أنه مقتطفات من كتاب الصفدي . بينما أشار صاحب معجم المؤلفين ١١٤/٤ إلى أن كتاب (الأرب من غيث الأدب) هو نفسه (الغيث المسجم) ويؤكد هذا محتويات كتاب الأرب المشار إليه . كما أن في دار الكتب الظاهرية بدمشق نسخة خطية باسم (غيث الأدب المنسجم في شرح لامية العجم) « شعر ٢ » وفي هدية العارفين ٣٥١/١ ، فهل هو المقصود في معجم المؤلفين ؟ .

٤) - **ألحان السواجع من المبادي والمراجع** : مجلدان وهو رسائله الى بعض معاصريه . مخطوط ، وقد ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ والأعلام ٣١٤/٢ وعند بروكلمان S II 28 و GAL II 32 باسم : ألحان السواجع من النادي والراجع برلين ٨٦٣١ باريس ٢٠٦٧ والمتحف البريطاني ١٠١٦ وغير ذلك .

٥) - **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب** : مخطوط ، وهو أرجوزة لكتاب ابن عساكر . وقد نشر صلاح الدين المنجد كتاباً للصفدي باسم (أمراء دمشق في الاسلام) أرجوزة ، لعلها جزء من (تحفة ذوي الألباب) وأورده بروكلمان S II 28 و GAL II 32 باريس ٥٨٢٧ وغيرها.

٦) - **التذكرة** : وهو مطوّل في الأدب والشعر ، تقع في ثلاثين مجلداً ، مرتب حسب الموضوعات ، ويقسم إلى أبواب في أنواع الفضائل والرذائل ، وفيه

كثير من الفوائد التاريخية والاجتماعية ، وكثير أيضاً من تراجم الشعراء والأدباء . ومن المرجح أنه صنف التذكرة ليعود إليها عند الحاجة . يقول صديقه تاج الدين السبكي : « أعارني مرة من تذكرته مجلداً ، وكان يصنف كتاباً في الوصف والتشبيه وينظر عليه التذكرة ، ويكتب على كل مجلد إذا نجز : نجز التشبيه منه (١) » .

كما ورد في الأعلام ٢/٣٦٤ . والكتاب مخطوط ، ذكره بروكلمان في GAL II 32 وقال : بعض أجزائها في جوتا ٢١٤٠ والمتحف البريطاني ٧٦٥ وغير ذلك .

٧) - **تصحيح التصحيف وتحرير التحريف** : وهو مخطوط ، ورد في معجم المؤلفين ٤/١١٤ وفي هدية العارفين ١/٣٥١ وهناك نسخة منه في دار الكتب المصرية بالقاهرة المكتبة الزكية ٣٧ لغة (٢) .

٨) - **تشنيف السمع بانسكاب الدمع** : وورد كذلك باسم : لذة السمع في صفات الدمع . جمع فيه ما قاله الشعراء في الدمع ووصفه ، فبدأ بالبكاء منذ قول امرىء القيس فيه ؛ حتى جرى كالأنهار وطمى كالبحور في عصره ، مع مقدمة حسنة في النقد . وهو مطبوع في القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

٩) - **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون (الجدية)** : صدرها بترجمة مطولة لابن زيدون ومراسلاته ، مع انتقادات شعرية ، ونوادر تاريخية ، عن الملوك والقواد يليه الشرح . وهو مطبوع .

١٠) - **توشيح الترشيح** : وقد أورده ابن حجر في الدرر الكامنة ٢/٨٧ فحسب . مطبوع .

١١) - **جلوة المذاكرة في خلوة المحاضرة** : وهو مخطوط في الخزانة التيمورية ،

---

(١) طبقات الشافعية ٦ / ٩٥

(٢) انظر (لحن العامة والتطور اللغوي) للدكتور رمضان عبد التواب ٢٦٨ - ٢٧٣

وصفه محمد كردعلي في مجلة المجمع ٣٨/١٦ ، ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢ والأعلام ٣٦٤/٢ .

١٢)- **جر الذيل في وصف الخيل** : وهو مخطوط ورد في : الدرر الكامنة ٨٧/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ .

١٣)- **جنان الجناس** : طبع في استانبول سنة ١٢٩٩ هـ ومنـــه نسخة موجزة بعنوان (نزهة الخلاص في علم الجناس) مخطوط في برلين ٧٣٣٣ . انظر بروكلمان CAL S II 29

١٤)- **الحسن الصريح في مدة مليح** : مجموعة أشعار في الغلمان ، وهو مخطوط ، منه نسخة في دار الكتب الظاهرية رقم عام ٥١٥٧ وأورده بروكلمان في GAL II 22 المتحف البريطاني ١١١٢ وأيا صوفيا ٣١٧٧ .

١٥)- **حلي النواهد على ما في الصحاح من الشواهد** : مفقود ذكره البغدادي في هدية العارفين ٣٥١/١ .

١٦)- **ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء** : وهو منتخبات من الشعر والنثر ، ألفه للسلطان الأشرف الأيوبي ، وهو مخطوط ، ويشير بروكلمان الى أنه بخط المؤلف GAL II 32 في فينا ٣٨٩ .

١٧)- **الروض الناسم والثغر الباسم** : وهو مخطوط ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢ والأعلام ٣٦٤/٢ ويشير بروكلمان الى أن منه نسخة في الأسكوريال ١٨٤٨ انظر GAL II 33 .

١٨)- **رصف الزلال في وصف الهلال** : وهو مطبوع . ورد عند بروكلمان باسم (كشف الزلال) وعند زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (رشف الزلال) ، والرشف والرصف أكثر قبولاً . كما يشير بروكلمان GAL II 33 الى أن منه قصيدة الحصكفي في معاني كلمة الهلال . برلين ٧٠٦٤ .

١٩)- **رصف الرحيق في وصف الحريق** : وهو مقامة لا يزال مخطوطاً . أورده بروكلمان بعنوان (كشف الرحيق) وزيدان (رشف) ، وكلاهما أقرب الى حسن الأداء من (كشف) في الاسكوريال ٥٦٣ . انظـــر بروكلمان GAL II 33

٢٠)- **رموز الشجرة النعمانية** : وهو مخطوط . ذكر في هدية العارفين ١/٣٥١ وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق ورد باسم (شرح الشجرة النعمانية) رقم عام ٨٧٣١ و ٦٢٣٢ و ٧٣٣٠ .

٢١)- **الشعور بالعور** : كتاب في الأدب ، فيه تراجم العور وأخبارهم ، وهـو مخطوط . ذكره بروكلمان في GAL II 32 برلين ٩٨٦٧ منـه نسخة في المكتبة الخالدية في ١٩٠ صفحة وصفها سامح الخالدي في الرسالة (مصر) ١٩٤٠/٨ : ١٤٠١ . وقد طبع مؤخراً بتحقيق الدكتور عبد القادر حسين . وانظر مقدمته ثمة .

٢٢)- **صرف العين عن صرف العين في وصف العين** : وهو مخطوط ورد في طبقات الشافعية ٩٦/٦ وهدية العارفين ١/٣٥١ وقال بروكلمان إن بعض أوراقه بخط الصفدي . انظر GAL II 33 في برلين ٣٨٠٦

٢٣)- **طوق الحمامة** : مختصر شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ، وقد أورده بروكلمان في كتابه GAL II 33 .

٢٤)- **طرد السبع عن سرد السبع** . ورد في : هدية العارفين ١/٣٥١ وعنـد بروكلمان GAL II 29 في كوبروللي ١٣٣٧ .

٢٥)- **العرف الندي في شرح قصيدة ابن الوردي** : مخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم عام ٥٨١٩ .

٢٦)- **عبرة اللبيب بعثرة الكئيب** : وهو عند بروكلمان : عبرة اللبيب بمصرع الكئيب أو (المقامة الأيبكية) في كتابه GAL II 29 الفاتح ٤٠٢٧ .

٢٧)- **الغيث المسجم في شرح لامية العجم** : أثبت فيه تمكنه من علوم العربية ، وقد أورد فيه شيئاً من المجون ، وفيه فوائد تاريخية هامة . طبع في مجلدين .

٢٨)- **غوامض الصحاح في اللغه** : في هدية العارفين . مطبوع .

٢٩)- **فض الختام عن التورية والاستخدام** : مخطوط ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وعند بروكلمان في S II 29 ، GAL II 33 في الأسكوريال ٢١٩ وكوبرولي ١٣٥١ وغير ذلك . ومنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية بلاغة ٤٨ .

٣٠)- **قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة** : مطبوع .

٣١)- **القصيدة اللامية** : عند بروكلمان GALS II 29 في برلين ٧٩٧٢ .

٣٢)- **قصيدة تائية** : ليبزج ٤٧٥ في بروكلمان GALS II 29 .

٣٣)- **قصيدة** . برلين ٨٧٦٠ GAL II 33 .

٣٤)- **كشف الحال في وصف الخال** : مجموعة شعرية وهو مخطوط ورد في : الدرر الكامنة ٨٧/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وعند بروكلمان GAL II 33 في هافانا ٢٩٣ ومنه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم عام ٦٩٢٧ .

٣٥)- **كشف السر المبهم في لزوم مالا يلزم** : وهو مخطوط . منه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٧١٥١ .

٣٦)- **الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه** : وهو مخطوط ، وورد بعنوان التنبيه على التشبيه في الدرر الكامنة ٨٧/٢ وبعنوان : الوصف والتشبيه في طبقات الشافعية ٩٦/٦ .

٣٧)- **لوعة الشاكي ودمعة الباكي** : مطبوع . انظر سزكين ١٢١٢/٢ ومنه نسخة خطية في مخطوطات جامعة الرياض ، الرقم المتسلسل ٣٢٩ و الرقم العام ١٤٣٦ .

٣٨)- **منشآت الصفدي** : مجموعة مقالات ورسائل وتواقيع وتقارير رسمية . وهي عند بروكلمان GAL II 32 ، S II 28 . في القاهرة (أول) ٣٣٤/٤ وموشح جوتا ٢٦ GAL II 33 وفي مكتبة الحزب الوطني بالموصل ، وصفه الدكتور داود الحلبي في مجلة المجمع ١٥٠/٩ .

٣٩)- **المنتقى من المجاراة والمجازاة** : مخطوط . ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢ باسم المجاراة والمجازاة في ما جريات الشعراء . وهو عند بروكلمان GALS II 29 في طوب قبو سراي ٢٦١٧ .

٤٠)- **المحاورة الصلاحية في الأحاجي الاصطلاحيه** : بروكلمان GALS II 29 في الاسكوريال ٤٣٢ .

٤١)- **نكت الهميان في نكت العميان** : تراجم فضلاء العميان وأخبارهم . وهو منسق ، ويتحلى بمقدمة حسنة في موضوعه . مطبوع .

٤٢)- **نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من الوهم** : في اللغة . وهو مخطوط ورد في هدية العارفين ٣٥١/١ .

٤٣)- **نجد الفلاح في مختصر الصحاح** : وهو مخطوط في اللغة أيضاً ، ورد في هدية العارفين ٣٥١/١ .

٤٤)- **نصرة الثائر على المثل السائر** . مطبوع بتحقيق المؤلف .

٤٥)- **الهول المعجب في القول الموجب** : عند بروكلمان CALS II 29 في القاهرة (ثاني) ٢٢٨/٢ .

٤٦)- **الوافي بالوفيات** : ولعله أكبر المعاجم التاريخية المعروفة من نوعه ، جمع فيه تراجم الأعيان ، ونجباء الزمان ، ممن وقع عليه اختياره . فلا يغادر أحداً من أعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والعمال والقراء والمحدثين والفقهاء والمشايخ والصلحاء والأوليـــاء والنحاة والأدباء والشعراء

والأطباء والحكماء وأصحاب النحل والبدع والآراء وأعيان كل فن ؛ ممن اشتهر أو أتقن إلا ذكره .

« وذكر كل من فتح فتحاً يسره ، أو خيراً قرره ، أو جوداً أرسله ، أو رأياً أعمله ، أو حسنة أسداها ، أو سيئة أبداها ، أو بدعة سنها وزخرفها ، أو كتاباً وضعه ، أو تأليفاً جمعه ، أو شعراً نظمه ، أو نثراً أحكمه فازداد النفع به للمحدّث والأديب [1] » .

دخل الكتاب في ثلاثين مجلداً [2] وفيه نحو أربعة عشر ألف ترجمة ، وساعده على الظفر بالمواد اللازمة له تنقله في ربوع مصر والشام ، وخزائن الكتب يومئذ موفورة ، والملوك وأهل الخير من العلماء والأعيان يمدون المدارس والجوامع وغيرها بالكتب ، ويوقفونها لوجـــه الله ، سعياً الى الخير لهم وللناس ، حتى استطاع أن يقدم لنا أعلام ثمانية قرون من رجال الإسلام . « ومقدمة هذا الكتاب العظيم من أمتع ما كتب مؤرخ ، تدل على سعة اطلاعه وسمو أدبه ، وعلى تدقيقه واستقصا آته [3] » .

« وقد طبعت هذه المقدمة في المجلة الآسيوية الفرنسية سنة ١٩١١ - ١٩١٢ ونشرت في كتاب على حـــدة [4] » وقد افتتحه بمن اسمه محمد ، فبدأ بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وثنّى بمن اسمه محمد من الأعيان ، ثم عاد فساق التراجم على حروف المعجم بأسلوب مرسل رقيـــق . ومن موجبات الأسف أن هذا الكتاب النفيس لا يوجد كاملاً في مكان واحد ، وربما

---

(١) انظر كشف الظنون ٢ / ٤١٠

(٢) معظمها مخطوط . وقد ذكرها بروكلمان في GALII 32 ، SII 28

(٣) كنوز الأجداد لمحمد كرد على ٣٨٠ وما بعدها .

(٤) تاريخ الأدب العربي - زيدان ٣ / ١٧٤

لا يتيسر جمع نسخة كاملة من الأجزاء المتفرقة في المكاتب التي بلغنا خبرها ، ولا يبعد وجود نسخة كاملة من هذا الكتاب في المكتبات الخاصة[1] .

هذا ما وصل إلينا من كتب الصفدي ، وهي ليست كل ما ألفه كما رأيت . وإن نظرة الى هذه المؤلفات وموضوعاتها ؛ تدلنا بوضوح على مدى ولوع الصفدي بالأدب شعره ونثره ، كتابة ونظماً وشرحاً ونقداً ، إضافة الى إتقانه للتراجم وفن كتابتها ، من ذلك ما أورده في كتابه الوافي ، بعد أن أشار إلى أخذه ذلك عن قاضي القضاة تاج الدين السبكي . فقال :

« يشترط في المؤرخ الصدق ، وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن لا يكون ذلك الذي نقله أخذه في المذاكرة وكتبه بعد ذلك ، وأن يسمي المنقول عنه . فهذه شروط أربعة فيما ينقله .

« ويشترط فيه أيضاً لما يترجمه من عند نفسه ، ولما عساه يطوّل في التراجم من النقول ويقصر ؛ أن يكون عارفاً بحال صاحب الترجمة ؛ علماً وديناً وغيرهما من الصفات ، وهذا عزيز جداً ، وأن يكون حسن العبارة عارفاً بمدلولات الألفاظ ، وأن يكون حسن التصور ؛ حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه ، وأن لا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه ، والتقصير في غيره ، بل إما أن يكون مجرداً عن الهوى وهو عزيز ، وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هـواه ، ويسلك طريق الإنصاف . فهذه أربعة شروط أخرى ولك أن تجعلها خمسة ، لأن حسن تصوره وعلمه ؛ قد لا يحصل معهما الاستحضار حين التصنيف ، فيجعل حضور التصور زائداً على حسن التصور والعلم .

---

(١) علمت أخيراً أن الكتاب كاملاً في طريقه الى الظهور في بيروت ـ المعهد الألماني للأبحـاث الشرقية .

« فهذه تسعة شروط في المؤرخ ، وأصعبها الاطلاع على حال الشخص في العلم ، فإنه يحتاج إلى المشاركة في علمه ، والقرب منه ، حتى يعرف مرتبته [1] » .

وهكذا ، فقد أحسن الصفدي صنعاً حين نأى بموهبته وذاكرته عن التعمق في أبحاث المنطق والعلوم العقلية ، فطلبها يسيراً ، واندفع مع ميله الأدبي ينهل ويعل ، فلقد كان هذا الإحساس بتأثير هذه العلوم يعيش في نفسه ، حتى غدا ملاحظة تجد لها في كل يوم دليلاً ، الى أن عبر عن هذه الفكرة فيما بعد في كتابه (الغيث المسجم) حين قال : « وكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون ، مال به الى ذلك الفن ، وغلبت عليه قواعده ، واستعمله في مقاصده الشعرية وتخيلات معانيه ، وظهر على ما يرومه اصطلاح ذلك الفن وأحكامه .

« ألا ترى إلى أبي الفتح البستي ومقاطيعه المشهورة في الآداب والحكم ، كيف غلب عليها ألفاظ المنجمين . ! [2] » .

وانطلق الصفدي مع رأيه هذا ، يغذيه بالأدلة والشواهد ، وقد حفل بها شعر عصره ، حتى أقنع قارئه بأنه غير متجن ولا متمحل فيما ذهب إليه . وبذلك صان الصفدي ذوقه ، ومنح مؤلفاته أصالة ترقى بها عن أن تكون مجرد نسخ وتصنيف ، بل إن وجوده فيها واضح بارز ، يخضعها لذوقه ، ويسبرها بحسه ، ويبدو وجوده وصائب نظراته بخاصة ، في مقدمات كتبه ، كما تتناثر في تضاعيفها .

كل هذا جعله مؤلفاً متمكناً ، يأتي في طليعة من كتب في الأدب والنقد في عصره . لذلك لا نغلو إذا عددناه ، مثلاً ممتازاً لما كان عليه فن الأدب في تلك الفترة من عمر الأدب العربي الوسيط ، كما تنسحب هذه القيمة لكتبه إلى ما

---

(١) الوافي بالوفيات ١ / ٤٦
(٢) الغيث المسجم ١ / ١٢٤

ألفه في التراجم ، وخاصة في كتابه (الوافي بالوفيات) ، دعت العلامة كرينكو ليقول : « إنا نجد في كتاب الوافي تراجم كثيرة ، نحاول عبثاً الظفر بمثلها في الكتب التي تماثل الوافي بموضوعها . والفهرس التام لأسماء الأشخاص الذين وردت تراجمهم في الأجزاء المعروفة من هذا الكتاب ، يتألف منها مجلد ضخم [1] » .

إضافة الى ما اتبعه الصفدي في ذكر الأسماء ، تسهيلاً للاهتداء الى ترجمتها في خضم هذا الكتاب الكبير ، بإتيانه في آخر ترجمة كل اسم بأسماء الذين اشتهروا بذلك الاسم ولهم أسماء أخرى ، فيشير الى أماكن تراجمهم من الكتاب ، وبأي اسم ترجم لهم فيه . وقد اقتبس الزركلي هذه الطريقة حديثاً وسلكها في (أعلامه) .

أخلاقه :

لم يجمع المؤرخون على أمر ، إجماعهم على الإشادة بما تحلى به الصفدي من خلق جميل ، وخصال حميدة ، فأحبه كل من عرفه .

فقد وصفه ابن حجر بأنه « كان محبباً الى الناس ، حسن المعاشرة ، جميل المودة - وأورد فيه قول الحسيني وهو أحد شيوخه بأنه - كان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وأنه من بقايا الرؤساء الأخيار كما قال ابن سعد[2] » حتى إن تاج الدين السبكي وهو يصغره بثلاثين سنة ، شعر بصداقة تربطه بالصفدي ، حين كان يتردد الى والده تقي الدين ليأخذ عنه . « ولم يزل مصاحباً لي إلى أن قضى نحبه » ودفعه حبه للصفدي الى أن يقدم له المساعدة لدى الحكام ؛ حين أضحى قاضياً ، ليأخذ مكانه في مناصب الدولة . كما كان من حسن خلقه أنه كان عطر

---

(١) كنوز الأجداد ص ٣٨٠

(٢) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧

السمعة طيب الذكر ، في كل ما تولاه من مناصب ، رغم ما كان يصيب أمثاله من المصادرة والاتهام .

وقد لمسنا جانباً من حسن خلقه في تواضعه العلمي ، حين عاد إلى تحصيل ما فاته من الفقه والأصول ، بعد أن كبرت سنه ، وأضحى له المقام المبجل المرموق في مجتمه ، فعاد ليقرأ « على الشيخ الإمام جميع (شفاء السقام في زيارة خير الأنام) . وأكثر من هذا ؛ عودته ليحضر حلقة صديقه تاج الدين ، ويقرأ عليه كتابه (جمع الجوامع) ويكتبه بخطه .

كما وصلت بينه وبين أصدقائه مكاتبات أدبية وودية ، يلفها الشوق والحنين كلما فرقت بينهم أسباب النوى . وقد ذكر تاج الدين في طبقاته طرفاً من هذه المكاتبات[1]

وكم من مجلس علم وأدب ضمه وأصدقاءه من القضاة والأدباء ، يتداولون مسائل علمية أو أدبية بروح الود والمحبة . وقد نقل الينا ابن كثير جانباً من هذه المجالس سنة ٧٦٣ هـ فقال : « دعيت الى بستان الشيخ العلامة كمال الدين الشريشي شيخ الشافعية . وحضر جماعة من الأعيان منهم الشيخ العلامة شمس الدين ابن الموصلي الشافعي ، والشيخ الإمام العلامة صلاح الدين الصفدي وكيل بيت المال ، والشيخ .. وأحضروا نيفاً وأربعين مجلداً من كتاب (المنتهى في اللغة) للتميمي البرمكي وقف الناصرية . . . [2] .

كما كان من دلائل حبه للناس ، وابتعاده عما يسيء اليهم ؛ أنه في كل ما ترجم وأرخ لم يستهدف لغضب المترجم له ، ولا أثار حفائظ الملوك والأمراء ، ولم

---

(١) طبقات الشافعية ٦ / ٩٤

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦ سنة ٧٦٣ .

يكن ذلك على حساب الحقيقة ؛ بل لعدم اعتنائه كثيراً بتاريخ السياسة ، أو تدوين وقائع الملوك .

ويبدو أن ما حمدناه فيه من لـــين العريكة وإيثاره محبة الناس ؛ سيترك للمجتمع تأثيراً واضحاً في أحكامه النقدية عند تصديه لذلك ، مما سيأتي في حينه إن شاء الله .

أعماله :

كان أول عمل تولاه خليل بعد أن كملت أدواته ؛ هو كتابة الدرَج في ديوان الإنشاء في صفد ، إذ أن ديوان الإنشاء ، كان يتألف من ناظر الديوان ويسمى كذلك كاتب السر ، وتحته كتّاب الدست وعددهم أربعة ، ويسمون كذلك الموقعين ، لأنه يحق لأحدهم التوقيع على الكتب الواردة في غياب ناظر الديوان ، ويأتي بعد ذلك كتّاب الدرج ويغلب أن يكونوا أربعة [1] .

ثم نقل الى القاهرة للعمل نفسه ؛ كاتباً للدرج في ديوان الإنشاء هناك ، ولكنه بطبيعة الحال وهو في حاضرة البـــلاد ، أسمى مكانة منه في أي مملكة من ممالك الدولة . ويبدو أن المقام طال به في القاهرة في عمله هذا ، الذي استمر به حتى حوالي سنة ٧٦٠ هـ وكان قد بلغ الصفدي الرابعة والستين من عمره .

وهنا يتقدم اليه صديقه الحميم تاج الدين السبكي ، وهو قاضي قضاة الشام ، ليحدثنا بقوله : « وقد ساعدته آخر عمره فولي كتابة الدست بدمشق ، ثم ساعدته

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٥

فولي كتابة السر [1] ، يتولى بعدها أبو الصفا كتابة السر أو ناظر ديوان الأنشاء بالرحبة ، ثم يتقدم تاج الدين ليقول : « ثم ساعدته فحضر الى دمشق على وكالة بيت المال وكتابة الدست .. وكان لا يلي نظر بيت المال إلا من هو من ذوي العدالات المبرزة [2] .

وهكذا تسلم الصفدي في نهاية عمره منصبين كبيرين من مناصب الدولة المدنية ، وكان ذلك قبل وفاته بعامين أي سنة ٧٦٢ هـ [3] .

ونقل سمعه في آخر حياته « وكان قد تصدى للإفادة بالجامع ، وسمع منه من أشياخه الذهبي وابن كثير والحسيني وغيرهم [4] » كما استمر قائماً على عمله الرسمي في منصبيه المذكورين ، الى أن مات بالطاعون في دمشق ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤ هـ

★ ★ ★

(١) هو صاحب ديوان الانشاء ويسمى كذلك كاتب السر « ومتولي رتبة كتابة السر أعظم أهل الدولة » خطط المقريزي ٣ / ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٢) خطط المقريزي ٣ / ٣٦٥

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٥

(٤) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧